المحاضرة رقم 07

رواد الرواية الجزائرية الحديثة المكتوبة باللغة الفرنسية. 01. مولود فرعون.

1-إرهاصات الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

لم يكن أدباء فرنسا – في أغلبهم – إبان الاحتلال الفرنسي في منأى عن مجريات السياسة الاستعمارية، التي تريد تغيير ملامح الشعوب المستعمَرة. فقد عملت هذه الفئة على الدفاع عن المشروع الفرنسي المتوسطي للجزائر، حتى تبعدها عن انتمائها المغاربي، والعربي، والإسلامي. «ففي بداية القرن، كان الفرنسيون يعملون على أن تنطق شمال أفريقيا باللاتينية، وتحمس لهذه الفكرة أدباء فرنسيون مثل أوي برتران وروبير راندل، ثم مع بداية الثلاثينيات كانت الفكرة هي صناعة أفريقيا على المنوال المتوسطي»[1].

واستمر المشروع، بتشكيل شبكة من العلاقات بين أدباء الجزائر الذين تشبعوا باللغة الفرنسية، وبين ثلة من أدباء فرنسا المؤمنين بفكرة فرنسا الاستعمارية، وتحول الأمر إلى صداقات، وتبادل للرؤى المتشابهة، والمنسجمة فيما بينها، «وظهر جيل من الأدباء في تلك السنوات عرفوا تحت اسم (شباب البحر المتوسط) كان أغلبهم من الفرنسيين. وفي الأربعينيات لمع الأديب الشاب ألبير كامي باعتباره فرنسيا يعيش ويكتب عن الجزائر. ويسمى هذا الجيل الذي عاصر الحرب في الجزائر من الفرنسيين بالجيل الاستعماري الثالث، ومن أبرز أبنائه (إيمانويل روبليس) صاحب

[1]) محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1996. ص104.

مسرحية (ثمن الحرية)»[1]. ويمكن تحديد مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومجازر الثامن ماي 1945، كفترة ظهر فيها الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وحاول أن يقرأ تلك الأحداث الأليمة، وأن يستوعب حجم الإجرام الفرنسي. فوصف واقع الجزائريين النفسي، والاجتماعي برؤية سردية يتجادل فيها الأنا الجزائري مع الآخر الفرنسي المحتل. وتسعى الشخصية باحثة عن مقوماتها الوجودية، وأسئلتها الاجتماعية ضمن فضاء الانهيارات التي يعيشها المجتمع تباعا. ولا يمكن أن نضع كل الروائيين الجزائريين الذين كتبوا بلغة المحتل في كفة واحدة؛ فلكل روائي رؤيته الفنية، ووجهته الإيديولوجية التي تتحكم في أدبه. يقول الطاهر وطار: «أقول عن كتاب الرعيل الأول، هؤلاء يمتلكون وجدانا جزائريا، وهم أولاد الشعب مثلما كان الشأن أيامها بالنسبة لمحمد ديب، لكن محمد ديب ما بعد الستينيات (بعد الاستقلال) لم يبق محمد ديب الخمسينيات والأربعينيات لأنه انفصل عن مجتمعه وظل في مجتمع آخر غريب وهو يستحلب من السماء بعض ذكريات طفولته»[2].

وبالنظر إلى طبيعة الأدب الجزائري في مرحلة ما بعد الحربين، وكذا مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، يتضح لنا أن المرحلة التي وجدت فيها جمعية العلماء المسلمين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، كانت تشجع على قول الشعر لما له من تأثير في العقول، وشحن للنفوس، وتحسيس بقدرات الذات الجزائرية الكامنة، ومحاولة تعريفها بهويتها، وانتماءاتها، والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع والتاريخ. و«إذا كان التحليل السوسيولوجي يرى الرواية ويدرسها في السياق التاريخي السوسيولوجي لإنتاجها فإن التحليل اللغوي الدلالي يحاول دراسة مسار إنتاج الرواية ولحظات وضعه لها. تبدو الرواية كممارسة لغوية موجهة وذات دلالات، فهي

---

[1]) محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية. ص 104.

[2]) زهرة ديك: الطاهر وطار هكذا تكلم..هكذا كتب..منشورات دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. د ت. ص61.

ممارسة في الدال أي اللغة وإعادة صياغة خصوصية لها، يمكن أن تنجز وفق أنماط مختلفة من الكتابات من كتابة واقعية إلى كتابة رومانسية، إلى خيالية فنتازية»[1].

وعود على بدء، تتضح معالم حركة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، الذي استلهم كثيرا من رؤاه داخل عمق المجتمع الجزائري، وقد تراءت لنا فكرة الاستلاب، والهجرة داخل اللغة، والتي جعلت آراء النقاد تسعى لتبين حقيقة أمر هذا التعبير، «ولا يهمنا أن نقرر أن تاريخ الجزائر الحديث يدل فيما نرى أن الملكة الأدبية الجزائرية خاصة والمغربية عامة ملكة قوية بلغت قدراتها حد تحطيم الحواجز اللغوية، وبلغت قدراتها حدا سايرت فيه الأدب الفرنسي سير الند للند، وهذه الملكة الفتية القوية الأمينة تقف اليوم عند مرحلة الانطلاق في آفاق جديدة.»[2] .

وقد سبقت أعمال الرواد الجزائريين المشهورين في مجال السرديات، مجموعة من المحاولات الأولى لكتاب لم يستمر إبداعهم لعوامل عديدة، منها عامل الاحتلال، وعامل الطباعة، وعامل المقروئية، وغيرها من العوامل، و«يرجع المؤرخ والباحث (جان ديجو) أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891، وهو عبارة عن قصة بعنوان (انتقام الشيخ)، مستقاة –حسب ما يذكر ديجو–من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال، ونشرتها (المجلة الجزائرية التونسية، الأدبية والفنية)»[3].

ولم تكن استجابة القراء كبيرة لمثل هذه الأعمال، فقد اقتصرت على بعض القراء الذين تلقوا تكوينا في اللغة الفرنسية في المدارس التي فتحت أبوابها للجزائريين، «ولا ندري متى ألف عبد الله شعابنة روايته (العجوز والطفل) التي نسبها إليه أحد الكتاب. فهل هو العسكري المتقاعد الذي أشار إليه جغلول [عبد القادر جغلول] كما أشار هذا الكاتب إلى أن زيد بن ديب (واسمه النكرة هو عمر سمار)

---

[1]) عمار بلحسن: الأدب والإيديولوجية. ط2. دار مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء 1991. ص 64.

[2]) محمد عبد الهادي شعيرة: نحو أدب قومي صميم في الجزائر. مجلة الرسالة. العدد 1110. السنة نيسان 1965. ص5.

[3]) أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي. نشأته وتطوره وقضاياه. ص87.

قد نشر في جريدة الحق العنابية رواية مسلسلة تحت عنوان (يا علي يا أخي) سنة 1893.»[1]. وربما ينقص مثل هذه الأعمال الروائية النضج الفني الذي تأطّر مع بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وقد شهد النقاد على القيمة الفنية لأعمال مولود فرعون، ومحمد ديب، وكاتب ياسين، ومالك حداد، وغيرهم. وقد وصل صيتهم إلى المدى العالمي حين ترجمت أعمالهم الروائية إلى عشرات اللغات.

وتتوالى السنوات، وتتاح فرص النشر، والدعاية الإعلامية في بعض المنابر الثقافية ذات اللسان الفرنسي؛ فدأبت تنشر تلك النصوص الجزائرية، «وفي سنة 1912 نشر (أحمد بوري) رواية مسلسلة في جريدة (الحق) التي كانت تصدر بوهران، وعنوان الرواية (المسلمون والمسيحيونMusulmans et Chrétiens). ورغم أن عنوانها غير روائي، فإن بعض النقاد أكد على أنها تمثل ربما الرواية بالمعنى الحقيقي للكلمة وليست مجرد محاولة»[2]. وهي قصة حب بين شاب جزائري (أحمد)، وابنة أحد المعمرين (مارسال). وقد حاول إعطاء صورة إيجابية على الانسجام بين المكون الإسلامي والمسيحي داخل المجتمع، وذلك من باب عدم الممانعة التي قد تجلب غضب فرنسا.

ويُعدُّ (محمد بن سي أحمد بن شريف)[3]، من الأدباء الجزائريين الذين تعرضوا للتهميش والإهمال من بعض المثقفين الجزائريين، لا لشيء سوى لأنه من مثقفي الجنوب الذين كتبوا بلغة المستعمر الفرنسي وأشهر أعماله (Ahmed ben

---

[1]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج8. ص178.

[2]) المرجع نفسه. ص177.

[3]) محمد بن سي أحمد بن شريف، أول روائي في الجزائر وشمال إفريقيا، وُلد في 16 فبراير 1879، في الجلفة، بين أولاد سي محمد، من اتحاد أولاد نائل. جده، سي شريف بن الأحرش، خدم الأمير عبد القادر. التحق محمد بن سي أحمد بن شريف بالمدرسة الثانوية في الجزائر العاصمة. كان زميل دراسة للأمير خالد في أكاديمية سان سير العسكرية (فرنسا) عام 1897، وتخرج برتبة ملازم ثان عام 1899. عُيّن مساعدًا عسكريًا للحاكم العام شارل جونار. أصبح ملازمًا في السباهيين (Spahis) عام 1905 وقائدًا لأولاد سي محمد في 4 فبراير 1907. في عام 1908، قاتل في المغرب. عاد إلى الجزائر عام 1914 وتوجه إلى الجبهة الفرنسية. أُسر في ليل في أكتوبر 1914، ومرض مرضًا خطيرًا أثناء الأسر، ورفض أي امتيازات تُقارن بزملائه الأسرى في كريفيلد. احتُجز في سويسرا بعد 16 شهرًا من الأسر، وأُعيد إلى وطنه في مايو 1918، ورُقّي إلى رتبة نقيب في العام نفسه. استأنف منصبه كزعيم لجماعة أولاد سي محمد. عندما تفشى التيفوس في الجلفة، كرّس نفسه بلا كلل لخدمة مواطنيه. أصيب بالمرض وتوفي في 22 مارس 1921 في الجلفة. كان قد أتم فريضة الحج إلى مكة المكرمة عام 1913.

Mostapha Goumier)، وبالعربية (القومي أحمد بن مصطفى)، ويحكي فيها عن يوميات أحد المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي، كما أن كلمة (قومي) تعني المجند في الوحدات الفرنسية. و«يعد أول نص روائي باللغة الفرنسية طبع بفرنسا سنة 1920، ترجمها إلى العربية الأستاذان الشيخ شعثان وأحمد حيرش سنة 2007، الرواية تصور مشاهد للبطل أحمد بن مصطفى أو الخيّال، الذي يتعهد عسكريا مع مجموعته لدى الجيش الفرنسي للذهاب إلى المغرب بغية تحريره ونشر السلام فيه بفضل شجاعته قاد الفيلق ونجح في مهمته .... ليجازيه القائد العام بوسام عسكري ومنه ينتقل إلى أهله بأولاد نائل ويحضر مشهد عرس ببادية الجلفة....
وفي مشاهد عرضية يصور الكاتب الحرب الشرسة التي دارت بين الصقور الصائدة وطائر الحبارى ويشده الحنين إلى بلاده الجلفة مسقط رأسه ...والرواية تتعرض للوطن والمنفى والصداقة والحرب والغربة والمرض.... بأسلوب جيد، استعمل اللغة الفرنسية أداة للتعبير، وحوار مشوق»[1].

ومن بين المشاكل التي تصادف الباحث الجزائري في هذا المجال، ومجالات علمية أخرى، هو فقدان الوثيقة، وتضارب التواريخ. فلا نكاد نستقر على تاريخ واحد متفق عليه، وإنما دائما العمل بتعدد الرواية. «ففي الجزائر نجد لهذه الرواية تاريخين الأول يرجعها إلى سنة 1920 بظهور كتاب قايد بن الشريف الموسوم بـــ (أحمد بن مصطفى القومي)، وهو عبارة عن سيرة ذاتية يسرد فيها المؤلف سيرة حياته، ويسهب بالخصوص في رواية تفاصيل مشاركته في الحرب العالمية في صفوف الجيش الفرنسي، والثاني هو سنة 1925 وهو التاريخ الذي ظهرت فيه رواية عبد القادر حاج حمو (زهراء امرأة المنجميZohra la femme du mineur)»[2].

ويكاد يجمع كثير من النقاد والدارسين في مجال الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أن أول رواية مكتملة العناصر السردية هي رواية (خضرة. راقصة أولاد نايل)، وهي رواية كتبت بالفرنسية من قبل (إيتيان ديني) الفرنسي، و(سليمان بن

---

[1] https://djelfainfo.dz/ar/art_culture/354.html

[2] أحمد منّور: نشأة وتطور الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية. عوامل ومظاهر التماثل والاختلاف. مجلة السرديات. جامعة منتوري. العدد 02. السنة 2008. ص114.

إبراهيم). وقد تناول الكاتب الجزائري الذي ينتسب إلى منطقة أولاد نايل (سعيد خطيبي)، وهو من مواليد 29ديسمبر1984 ، ببوسعادة، روائي وصحفي جزائري، حاز على العديد من الجوائز الأدبية منها: جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة، وجائزة الشيخ زايد للكتاب 2023 عن روايته (نهاية الصحراء). بشيء من التحليل مبرزا بعض الكوامن التي تغلف هذا العمل السردي، ويقول في سياق حديثه عن هذه الرواية: «صدرت هذه الرواية قبل قرابة قرن من الآن سنة 1926، وعلى الغلاف ظهر اسمان: إيتيان ديني وسليمان بن إبراهيم. نعلم أن إيتيان ديني، الذي عاش فناناً تشكيلياً وكاتباً لم يزر قط مدينة غرداية، ولا يعلم تفاصيل الهامش في بوسعادة، بحكم حياته البورجوازية، بالتالي فإن كاتب الرواية الحقيقي هو سليمان بن إبراهيم، أصيل مدينة غرداية، الذي أقام ردحاً من الزمن في بوسعادة، وهو العارف بتفاصيل المنطقتين، ولكونه أمياً لم يكن قادراً على التدوين»[1]. وربما بحث هذا الكاتب الجزائري عن بعض القرائن الأخرى التي تثبت أحقية الكاتب (سليمان بن إبراهيم) في نسبة هذه الرواية إليه؛ إذ يرى أنه «استعان بإيتيان ديني، فقص عليه حكاية خضرة وبن علي وأصدرها الآخر باسميهما، مركزاً على عنوان مستفز، مصراً على وصف بطلة الرواية بالراقصة، من يومها سرى كليشيه في عقول الجزائريين، أن نسوة أولاد نائل هن نسوة رقيقات مندفعات للحياة، يطلب الرجال ودّهن، نجح إيتيان ديني في ترويج كليشيه كولونيالي، ولم يُشف الجزائريون منه مثلما لم يشفوا من بقايا الاستعمار، يكررون ما علمهم إياه المستشرقون سنوات الاستعمار، رغم أن تلك الصورة التجارية التي راهنت عليها الرواية كانت مناقضة للواقع.»[2]. ويعد هذا الرأي مناهضا للرؤية الكولونيالية التي تريد دوما تشويه صورة الشعوب المستعمَرة، وتجعلها دوما في حاجة ماسة إلى سلطة المحتل الغالب.

---

[1]) سعيد خطيبي: أولاد نايل. والخروج من حيز الاستشراق. مقال نشر بتاريخ 18 مارس 2022 على موقع https://www.alquds.co.uk/

[2]) المرجع نفسه.

والرواية هي قصة مغامرات فتاة من أولا نايل اسمها (خضرة بنت طاووس)، كبرت في ظل سيطرة والدتها القاسية، والتقاليد الاجتماعية المتشددة، وهذه الأم كانت تدير حياتها في كنف الرذيلة، والرقص في الليالي الحمراء مع زحمة النساء النايليلات الراقصات، وكوامن العربدة والخمور وسط الليالي التي كانت مرتعا لأفراد الجيش الفرنسي وأعوانه من الحراس والمنخرطين في صفوفه من الجزائريين. تتشابك حياتها مع حياة شاب أحبها، لكن يصطدم هذا الحب بوساوس الشك والخوف، تهرب الفتاة من منزل زوجها باتجاه الجلفة. وتلتقي بأحد الرجال الرحل (بن علي)، وتقوم بينهما علاقة عشق. وتسير أمها وراءها وتلحق بها لتعيدها إلى بيتها في (بوسعادة)، وتدفع بها للعمل في ملهى ليلي رغبة في النقود. ويحاول (بن علي) اللحاق بها، فيتعرض إلى الأذى والإهانات من قبل رجال المنطقة. ثم يظفر بها ويتنقل إلى (القرارة). ويشتغل بن علي في التهريب، فيلقى عليه القبض. ثم تنتقل (خضرة) إلى غرداية، ثم ورقلة، وبسكرة من ملهى إلى آخر. ثم تعود في الأخير إلى بوسعادة، فتلتقي بن علي من جديد، ولكن تكيد له فيغتال، وتصاب هي بالجنون. والرواية تأخذ القارئ في رحلة عبر مدن الجنوب، وطبيعة السلوك البشري هناك، والعلاقات المتشابكة وسط كتلة من المشاعر المعقدة. «إن الرواية في غرابة أحداثها ومفاجآتها أقرب إلى جو الروايات التي تتناول الحياة في المدن الرأسمالية العريقة، حيث الملاهي والحياة الاستهلاكية. من هنا فإن الكاتبين لم يأخذا من الواقع الجزائري سوى الإطار: أسماء الأشخاص وأسماء المدن. أما روح الرواية وطبيعتها ومنطقها فكل ذلك من نتاج مجتمع غير هذا المجتمع المتخلف.»[1].

[1]) أمين الزاوي: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية. ص62.

2-أعلام الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ما بعد الخمسينيات:

لم تكن مجازر الثامن ماي سنة 1945 مجرد أحداث عابرة مثلما زعم الاحتلال الفرنسي؛ بل هي نقطة انعطاف هامة في تحول الوعي الوطني الجزائري، الذي اقتنع آنذاك أن فرنسا لا عهد لها، ولا ذمة. وأن بطشها وهمجيتها لا تفرق بين من آمن بأفكار فرنسا، وتعلم لغتها، وانسجم مع طروحاتها، وبين من بحث عن نفسه داخل المنظومة العربية الإسلامية. فهم جميعا على كفة واحدة. ومن هنا تحولت عقلية كثير من مثقفي الجزائر الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية، وأصبحوا مناهضين لفكرها. «وبقدر ما كانت الحركة الوطنية تنمو كان المثقفون الفرنسيون يشعرون أكثر فأكثر بالغربة في كتاباتهم، وبقدر ما كانت الإيديولوجيا الوطنية تتصاعد وتتمركز داخل الحياة اليومية داخليا وعلى المستوى السياسي عاليا، كانت هذه الكتابات الفرنسية تجد نفسها محاصرة في ركن..فتشرع في الميل نحو استدرار العواطف والسقوط في المأساوية والسوداوية والتأمل في الطبيعة بدلا من الإنسان، وإنتاج ما يسمى بالأدب الأسود (Littérature noir) أو أدب القنوط الذي ساهمت في تشكيله ظروف تاريخية معقدة تجاوزت الكاتب نفسه (ألبير كامي-جول روي-روبلس)»[1].
ومن الأدباء الذين علا شأنهم في مرحلة ما بعد 1945، نجد:

أ- مولود فرعون:

هو أحد الكتاب الذين تبوأوا مكانة كبيرة في حقل السرد الجزائري المكتوب بالفرنسية، وذلك نتيجة موهبته في الكتابة، وتعلمه، وتفوقه. فتطورت ملكة الكتابة الفنية خاصة في مجال السرد، واستطاع أن يحلق عاليا أمام كتاب عالميين من أمثال (ألبير كامي) الذي حصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1957. وهو أحد المتفوقين في كتابة أدب السيرة أو (السير ذاتي). ولد في قرية تيزي هيبل سنة 1913. وينتمي إلى عائلة فقيرة. زاول دراسته الابتدائية في قرية (تاوريرت موسى) المجاورة،

[1]) أمين الزاوي: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية. ص86.

والتي استوجبت منه قطع مسافة معتبرة تتميز بمسالكها القروية الصعبة يوميا. وكان متفوقا، مثابرا، مجتهدا. ومارس مهنة التعليم في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة في وقت من الأوقات وعُين في سنة 1960 مفتشا لمراكز اجتماعية كان قد أسسها أحد الفرنسيين سنة 1955. وهي آخر وظيفة اشتغلها قبل أن يغتال من قبل المنظمة السرية الفرنسية(O.A.S) في 15 مارس 1962، أي قبل وقف إطلاق النار بثلاثة أيام. وترك وراءه عدة مؤلفات أشهرها: نجل الفقير (Le File du pauvre) 1950. الأرض والدم (La Terre et le sang) 1954. أيام قبائلية (Jours de Kabylie) 1954. الدروب الوعرة (Les Chemins qui montent) 1957. أشعار سي محند (Les Poèmes de Si Mohand) 1960. يوميات(Journal)1955–1962.

وقد استطاع هذا الكاتب أن يعبر عن القرية والجبل القبائلي بطريقة ممتعة، تعكس مدى تعلقه بالمكان، وما يشتمل عليه من حمولة دلالية، فيغدو مكونا رئيسيا في رواياته. وقد حدثنا في كتابه (يوميات قبائلية)، في أول جزء منه الموسوم بـــ(قريتي) Mon Village قائلا: «لست من الذين يكرهون قريتهم، مع أنه لدي أسباب كثيرة تجعلني لا أفخر بها. وقد عشت في أماكن كثيرة لأوقات طويلة، ولكنها اعتادت رجوعي. ومع غيابي المستمر، وعودتي لم تعد تعرني اهتماما. هي لا تخاف مني، وتُرحّب بي دائماً بحفاوةٍ وبساطة، بوجهها المعتاد، تماماً كما ترحّب بأطفالها الذين يغادرونها صباحاً ويعودون من الحقول مساءً. هذه الثقة مؤثرةٌ جداً؛ أُقدّرها كثيراً.»[1]

وبتلك العفوية، والارتباط الشديد بالمكان، يقول في رواية نجل الفقير: «إن السائح الذي يجرؤ فيتوغل في صميم بلاد القبائل، ليتملّى سواء عن اقتناع أو عن شعور بالواجب في معالم يجدها بديعة الحسن، وفي مناظر طبيعية تبدو له ذات شاعرية فياضة فإذا هو يحس دوما بضرب من التعاطف والتسامح إزاء السكان وأخلاقهم.»[2]

[1]) Mouloud Feraoun : Jours de Kabylie. Collection Méditerranée Aux Edition du Seuil. P11.

[2]) مولود فرعون: نجل الفقير. ترجمة: محمد عجينة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص11.

ثم يسترسل في وصف صورة المكان، وما يشعر به السكان الذي يسكنونه، وهم على غير موقف السياح الذين تكون حركتهم فوقه حركة عابرة: «تيزي تجمع سكني يعدّ ألفي نسمة. ومنازلها يتعلق بعضها ببعض، الواحد تلو الآخر، على قمة منحدر صخري، كأنها فقرات ضخمة لبعض وحوش ما قبل التاريخ."[1]. وحتى يشيّد صورة متكاملة مرتبطة بسلوك المجتمع، يرسم بعض الملامح الشكلية الأخرى، والتي تجعله في انسجام مع ذلك السلوك: «وها أنتم في ساحة القرية الكبرى (ساحة الموسيقيين)، أو كما نسميها (الجْماعة) وهي فريدة، والحي العلوي يحسد عليها الحي السفلي، وتقوم بلاطات عريضة من حجر التنضيد على خمسين سنتمترا من البناء غير المحكم، لصق واجهات المنازل فتشكل مقاعد (التادجمايت) [أو التجماعت] التي يجلس عليها الرجال والأطفال.»[2].

إن هذه الرواية تعتمد السرد المباشر، الذي يتكئ على الراوي. وهو يسرد الأحداث بضمير الأنا المفرد. ومن هنا تندمج شخصية الراوي مع شخصية البطل الحقيقي في الرواية. و«من أبسط تعريفات السيرة الذاتية ما وضعه لها ستاروبنسكي (Starobinsky) في قوله: هي سيرة شخص يرويها بنفسه.»[3]. ولذلك لا تميل الرواية إلى تقطيع الأحداث، وجعلها متناثرة، وإنما تحاول تجميع أكبر قدر من التفاصيل حول المكان، والزمان، وعلاقة الشخصيات بعضها ببعض، وذلك من أجل تشكيل المشهد النهائي للحياة داخل القرية. و«يكشف تأمل السير الذاتية عن ثلاثة احتمالات لكتابتها. فهي إما أن تُروى بضمير المتكلم المفرد، وإما أن يتوجه الراوي بالخطاب إلى ضمير المخاطب المفرد، وإما أن يتحدث عن البطل متوسلا بضمير الغائب المفرد. إن الحالة الأولى لا يخفى فيها التطابق بين الراوي والشخصية الأساسية بما أن من يعيش الحدث هو نفسه من يرويه»[4]. وتنبني على مجموعة من

---

[1]) مولود فرعون: نجل الفقير. ص12.

[2]) المصدر نفسه. ص12–13.

[3]) شكري المبخوت: سيرة الغائب. سيرة الآتي. السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين. دار الجنوب للنشر. تونس 1992. ص9.

[4]) المرجع نفسه. ص12.

الشخصيات التي تمارس أدوارها داخل البناء السردي، وهذه الشخصيات هي: (منراد Menrad) وهو لقب العائلة، والتي كان لقبها في الأصل (آيت شعبان). وأهل الحي ينادونهم بأولاد شعبان. وشخصية العم (لونيس)، وهو إنسان موسوس ونظيف، يلبس لباسا نقيا. والجدة (تسعديت). والأب (رمضان)، وهو رجل أسمر، وأكثر صلابة، وأشد قصرا من أخته، وهو مثال الفلاح القبائلي الأعجر القوي العضلات. والجد (شعبان)، وكان وجه الشبه كبيرا بين الجد والأب. وشخصية زوجة العم (حليمة) كانت رشيقة. ويضربها العم بغرض تقويم بعض سلوكاتها المعوجة. وكان الأب عدوها اللدود، لأنها كانت تمارس المكيدة أحيانا. والأم من (آيت موسى) وهي من بنات عمومة آل منراد. الجد من الأم اسمه (أحمد). الأم اسمها (فاطمة) وهي امرأة قصيرة، شاحبة بعض الشحوب، نحيفة، ولها وجه مفرط في الطول ووجنتان بارزتان ولكن لها نظرة مليحة كلها كآبة وأيضا رقيقة. والشخصية المحورية هي شخصية (فورولو)، وهي الشخصية الذكر الوحيدة في الأبناء، مما جعلها تتبوأ مكانة، ودلالا في العائلة، وعلى الرغم من الفقر، إلا أنها كانت تحظى بتلبية كل مطالبها، وعدم خضوعها لأي عقاب على الرغم من أنها كانت تضرب الأخت الأصغر منها. وتبرز الشخصية الرئيسية في الرواية متحدثة عن نفسها: «ولدتُ في السنة المباركة 1912، قبل قرض تبراري الشهير[1] الذي أهلك عجوزا عند ذرى الجرجرا ومسخها حجارة، والذي ما زال إلى الآن يثير هلع الذين بلغوا الثمانين من بين القبايليين. ولما كنت أول مولود ذكر في أسرتي قمين أن يحي. صممت جدتي دون تردد على أن تسميني فورولو (من إفّر أي أخفى). ومعنى ذلك أن لا أحد يمكنه أن يراني بعينه الطيبة أو الشريرة حتى ذلك اليوم الذي أعبر فيه بنفسي على قدمي عتبة دارنا.»[2]. فالإحالة على تاريخ الميلاد، هو إحالة على جزء من تاريخ الجزائر، وتاريخ منطقة القبائل، والإحالة على بعض العادات، والطقوس الاجتماعية الخرافية التي يعتقد أهل

[1]) تبراري هو شهر فيفري. لقد أقرض فيفري يوما من أيامه إلى جانفي الذي كان يريد أن يعاقب امرأة من الجرجرا. ويسمى ذلك اليوم امرذيل أي القرض. ص27 من الرواية.

[2]) مولود فرعون: نجل الفقير. ص27.

القبائل أنها تصون، وتحمي المولود من كل سوء، هو الإشارة إلى بعد سوسيوتاريخي يشخص طبيعة العقلية التي كانت تتحكم فيها بعض الأفكار والخرافات. واعتبارا من هذا المنطق تتأسس نصوص السيرة على مبدأ الحكي المنسجم مع المعطى الاجتماعي والثقافي. و«لقد نشأت السيرة بنوعيها: الذاتية، والغيرية في حضن التاريخ، لذلك ففيها بعض ملامحه، بل إنها في بعض الأحيان تقترب منه إلى درجة تجعل بعض الباحثين يعدونها لونا من ألوان التاريخ.»[1]. وتتلاحم الأحداث فيما بينها، حينما يحاول الفتى الصغير المحافظة على إرث أجداده الأخلاقي والاجتماعي، من جهة، ومحاولة الانخراط في العالم الجديد حين يتعلم لغة الفرنسي، ويتفوق فيها. وينتقل بعد ذلك إلى المدرسة الفرنسية، وكان دائم الخوف من الفشل والإحباط.

ويبدو أن الكاتب (مولود فرعون) قد أعلن في سرديته المحافظة على أسماء الأشخاص، والأمكنة، والزمن، وشبكة العلاقات الاجتماعية عبر عينة من قرية جبلية في منطقة تيزي وزو. «والكاتب الجزائري الوحيد الذي شذ عن القاعدة وكتب عن نفسه بشكل مباشر ولم يلجأ إلى أي تمويه أو تضليل كان مولود فرعون في رواية (ابن الفقيرLe Fils du pauvre) فقد صرح منذ البداية أنه سيرسم صورة لنفسه على غرار كتاب قرأ لهم وأعجب بكتاباتهم مثل (مونتيني) و(روسو) و(دودي) و(ديكنز)»[2].

---

[1]) تهاني عبد الفتاح شاكر: السيرة الذاتية في الادب العربي. فدوى طوقان. جبرا إبراهيم جبرا. احسان عباس نموذجا. ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2002. ص 16.

[2]) أحمد منور: رواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري (ابن الفقير نموذجا). مجلة المساءلة. العدد 01. السنة 1991. ص186.